



مسجد حلب يعد الأشهر والأضخم في حلب بعد قلعة حلب أكبر قلعة باقية حتى الآن... ويعرف بالجامع الأموي أو جامعبني أمية، ويطلق عليه البعض اسم جامع زكريا بسبب دفن قطعة من جسد نبي الله زكريا في الجامع.

وهو معلم تاريخي مهم جداً لما يحكيه للمهتمين بتاريخ المساجد وعماراتها وأشكالها وأنماطها من فوائد جمة وذكريات غالبة... وهو يقع قريباً من القلعة الشهيرة إلى الغرب منها قليلاً.

بناء المسجد 96 هـ 716 م:

قبل: إن الوليد بن عبد الملك، بناء ضمن سلسلة الأبنية الرائعة التي قام بها في أيام خلافته، كالمسجد الأموي في دمشق وغيره، مما خلد ذكره على مر التاريخ، ويستدل هؤلاء على ما يزعمونه بما كان في الجامع الأموي في حلب من زخارف ونقوش وفسيفساء ورخام لا نظير له إلا في مسجد دمشق.

وقال بعض المؤرخين: إن الذي بني جامع حلب الكبير إنما هو سليمان بن عبد الملك شقيق الوليد لا الوليد نفسه، وإنما أراد سليمان أن ينافس أخاه في أعماله العمرانية، فأولى هذا الجامع عنابة فائقة، وأنفق عليه أموالاً ضخمة، وجعله تحفة فنية رائعة في جمالها وسعتها واتقانها. وقيل أن عمر بن عبد العزيز أشرف على بناء المسجد.

أما أحجار بنائه فقد كانت لكنيسة كبيرة متهدمة مهجورة، كانت في مدينة كورش

وكان في المسجد منارة قديمة، إلا أنها لم تكن تناسب ضخامته، وآلت مع الزمن إلى التصدع ، فقام القاضي أبو الحسن محمد بن يحيى بن محمد الخشاب ببناء المنارة الحالية، التي تعتبر من

روائع المنارات في العالم الإسلامي، وقد عمد المعمار الذي بناها - وهو من قرية سرمين قرب حلب - إلى حفر أساسات عميقة، وصل بها إلى الماء، ثم جعل أساساتها من الحجر المترابط بعضه مع بعض بواسطة كالليب الحديد والرصاص، ثم ارتفع بها في الهواء قرابة 30 متراً ، وجعل لها مائة وأربعة وسبعين درجة، وهي مربعة الشكل يبلغ طول الضلع الواحد فيها قرابة ثلاثة أمتار، وفي أعلىها موقف للمؤذن، ثم تعاود الارتفاع حتى تختم بقبة.

وعلى المنارة من كل الجهات الأربع نقوش حجرية بدعة الصنع مقسمة إلى مربعات ، تدخلها زخارف هلالية تقوم على أعمدة. وبنيت قبة في صحنه.

وطول المسجد قرابة مئة وخمسين متراً، وعرضه حوالي مئة متراً تقريباً، ويقوم الجامع اليوم على مساحة من الأرض يبلغ طولها 105 أمتار من الشرق إلى الغرب، ويبلغ عرضه نحو 77.75 متراً من الجنوب إلى الشمال وهو يشبه إلى حد كبير في مخططه وطرازه جامع دمشق.

وله أربعة أبواب هي:

- الباب الشمالي، يقع إلى جوار المئذنة.
- الباب الغربي، ينفذ إلى شارع المسامييرية.
- الباب الشرقي، وينفذ إلى سوق المناديل.
- الباب الجنوبي، ينفذ إلى سوق النحاسين.

تفضي إلى مجموعة كبيرة من أسواق حلب التجارية الأثرية، وجداره سميك جداً تبلغ أقل من مترين، وارتفاعها قرابة تسعه أمتار.

وبيت الصلاة قائم على ثمانين عضادة ثخينة، موزعة على أربعة صفوف موازية لجدار القبلة، في كل صف عشرون عضادة، وبين كل عضادتين من كل جهة قرابة أربعة أمتار، مما يجعل بيت الصلاة واسعاً مهيباً يوحى بالجلال والرعب...

منبر نفيس قل نظيره:

... ويلفت النظر في بيت الصلاة في الجامع الأموي في حلب أمنان اثنان:

أولهما: المنبر الذي يصفه الشيخ كامل الغزي بقوله:

وهو من الخشب المصنوع الجميل العديم النظير في مساجد حلب، قد اشتغل على رقاع مخمسة مسدسية بديعة الصنعة، قد نزل فيها قطع راقق من العاج والصفر الذي يلمع كأنه الذهب، ومن جملة خشب هذا المنبر الابنوس الشهير، وارتفاعه عن أرض القبلية إلى كرسيه الذي هو يعد آخر درجة منه أقل من ثلاثة أمتار، ثم تكون قبة. وقد خط عليه اسم عامله ومتوليه ومن أمر به والسلطان الذي كان عصره.

وكان هذا المنبر صنع مع منبر نظير له حمل إلى بيت المقدس بعد أن فتحت القدس على يد المرحوم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وثانيهما مما يلي المحراب الكبير وهو من الحجر الأصفر البغدادي الفخم.

ماء المسجد:

كان تحت صحنه خزان ماء كبير جداً، يكفي أهل المدينة إذا طرقهم العدو - وما أكثر ما يحدث ذلك - فقام متولى أوقاف الجامع ابن الأيسر بعمارة ذلك المصنوع، الذي تجتمع فيه المياه العذبة من قناة حلب الشهيرة، فجاء مصنعاً (خزان ماء) واسعاً متقناً، يكفي السفائين والناس ولا يفرغ من الماء.

وقد تبرع ببنائه فاعل خير مجهول طرق الباب على ابن الأيسر ليلاً ودفع إليه - على مرتين - ألفي دينار ذهباً دون أن يعرفه بنفسه، سوى أنه يريد فعل الخير على يديه دون ضحة، فالله أعلم به.

أحداث وقعت للمسجد:

• مسجد حلب والخلافة العباسية:

للأسف كان موقف الخلافة العباسية التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية سلبياً للغاية ... فبسبب العداء الذي كان بين الأمويين وال Abbasians. أزال العباسيون الزخارف والزينة والآلات ونقلت جميعها إلى جامع الأنبار في العراق.

• اقتحم نقوف ملك الروم حلب عام 351هـ على حين غرة وعاد فيها فساداً وأحرقها ثم عمد إلى المسجد وأحرقه بأكمله.

• ثم قام سيف الدولة الحمداني بترميته ولكنه لم يكمل ، وأكمل ذلك غلام ابنه سعد الدولة الحمداني وكان يدعى قرعويه وأضاف إليه القبة الفوارقة في وسط صحنه وهي قبة تقوم على أعمدة وفيها جرخ رخام أبيض في غاية الكبر والحسن، وفي حافته مكتوب (هذا ما أمر بعمله قرعويه غلام سيف الدولة ابن حمدان في سنة 354هـ).

• يذكر أنه في شوال عام 564هـ قام الفاطميون بإحراق الجامع الكبير في حلب حينما أخذوها من نور الدين زنكي الملقب بالشهيد، فلما استعادها منهم اجتهد في عمارة هذا المسجد، وقطع الأعمدة الصفر من بعادين، ونقل إلى عمدة سورقنسرين، وزاد في مساحة المسجد من جهة الشرق بالإضافة سوق إلى جواره موقوفة عليه، حتى صار المسجد مربعاً في شكله حسناً في مرآه وحاله.

• وتعرض مسجدبني أمية في حلب للإحراق مرة أخرى عام 679هـ ، حينما أحرقه ملك سيس أحد ملوك الأرمن، فلما تولى نيابة حلب قراسنقر أمر القاضي شمس الدين صقر الحلبي بعمارةه وتجديله، ففرغ من ذلك عام 684هـ.

• وفي سنة 834هـ وقعت الواجهة الغربية للجامع وكان سقفها جملوناً من خشب، فقام الأمير يشبك اليوسفي نائب حلب بإحداث قبو تحت تلك الجهة للانتفاع به في مصالح المسجد، ثم رفع فوق القبو المجنية الغربية منه، مع اعتناء زائد واتقان جميل.

آثار المسجد:

• قبر نبي الله زكريا عليه السلام: في بيت الصلاة: حجرة مربعة في جدار القبلة جوار المحراب، يصعد إليها بدرجة واحدة، سقفها قبة وجدرانها الثلاثة : الجنوبي والشرقي والغربي، بنيت من أجمل الخزف الفاشاني الملون، وباب هذه الحجرة - وهو الجهة الرابعة منها - عليه قنطرة عالية ارتفاعها ستة أمتار، وحجارتها سود وصفر محمولة على عمودين عظيمين، وعلى هذه القنطرة مع العمودين الحاملين لها نحاس أصفر مشبك على شكل مربعيات من رأس العمودين إلى أرض الحجرة، ذو مصراعين يفتح ويغلق، وفي جانب كل من العمودين زخرفة من الفاشاني البديع، وهذه الغرفة تعرف باسم مزار سيدنا زكريا..

وقد نقل ابن شداد وابن الشحنة وابن الخطيب - ... و كل منهم تكلم في تاريخ حلب - نقلوا عن ابن العظيمي أنه في سنة 435هـ ظهر ببعلك في حجر منقول رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، فنقل إلى حمص ثم منها إلى مدينة حلب في هذه السنة، ودفن في قلعتها في مكان يعرف بالمقام، ثم لما احترق المقام في القلعة في حادثة التتار سنة 659هـ، عمد أبو بكر ابن ايليا الناظر... على الذخائر وأبو حامد بن النجيب الدمشقي الأصل الحلبي المولد إلى رأس زكريا عليه السلام فنقاله من القلعة إلى المسجد الجامع بحلب، ويفناه قرب ما هو المنبر، وعمل له مقصورة وهو يزار...

• وعلى أرض تلك الغرفة يرتفع تابوت ضخم، مغطى بكسوة نفيسة من مخمل مزركس بالفضة فيه بعض سورة مريم، كان أرسلها السلطان العثماني عبدالعزيز خان عام 1291هـ .. وفي الغرفة أيضاً مصحف أثري قديم وبعض الهدايا النفيسة. وفي بيت الصلاة - سوى المنبر والمزار - كثير من الآثار: منها مقصورة قديمة مجددة كان يستخدمها بعض الولادة.

• ومنها خزائن كتب نفيسة ومنها كتابات تسطر أسماء وعصور من أحدثوا في هذا المسجد أعمالاً ترميمية أو إصلاحية أو إضافية، وعلى الأخص السدة المواجهة لقبلة الجامع.

صحن المسجد ورواقاته:

وصحن الجامع كبير جداً فرش كله بالرخام الأصفر الذي تخلله بلاطات سود على صفة جميلة من النقوش إذا نظرت إليه أول وهلة حسبت تلك الزخرفة كتابة كوفية، وليس كذلك.

وحوله من الجوانب الثلاث: الشرقية والشمالية والغربية رواقات ثلاث مفروشة بالبلاط الأصفر فقط، وقد تبرع بهذا البلاط

عام 1042هـ رجل من الأعيان اسمه زين الدين بك.

وفي صحن المسجد محراب صغير يقف فيه الإمام لأداء الصلوات الجهرية أيام الصيف، وتجاهه مصتبة لوقوف المؤذنين عوضاً عن السدة التي بداخل بيت الصلاة.

ويشتمل صحن الجامع على معالم لمعرفة وقت الظهر والعصر صنع سنة 1300هـ. كما يشتمل الصحن على بئر كبيرة معطلة حالياً، ويشتمل كذلك على حوض مدور عليه قبة محمولة على ستة عواميد وهي القبة الفواردة.

وفيه أيضاً عمود من الحجر الأسود ارتفاعه 4 أمتار، وفي رأسه شبه قفص من اطواق الحديد، كانت تعلق بها القناديل... ويقال: بأن نور الدين زنكي - وهو أحد الذين جددوا عمارة مسجدبني أمية في حلب - كان يحرق به العود البخور في المواسم الدينية ليتتصوّع في أرجاء المسجد.

علامة وقت الصلاة ... والموقتون:

وبما أن صحن المسجد دون ارتفاع ارض الأروقة المحيطة به، فإنه توجد ثلاثة درجات في مختلف النواحي للصعود إلى الأروقة، منها ثلاثة درجات في الزاوية الشمالية الشرقية ، والثانية من تلك الدرجات الثلاثة محوّزة حزاً مستقيماً من جنوبها إلى شمالها، فمتي بلغت الشمس هذا الحز أذن المؤذن للظهر، والذي حز تلك الدرجة هو عبد الله بن عبد الرحمن الحنفي الميقاتي...

وقد عرفت وظيفة المؤقت في هذا المسجد الكبير الذي تقتدي به مساجد حلب كلها في الأذان، وكان آخر الموقتين الشيخ الزاهد يس موقت رحمة الله.

وقد أعدت إدارة الأوقاف حالياً فوق المنارة كرة كبيرة مفرغة الداخل ملونة بلون أحمر واضح للعيان فإذا حان وقت أذان الظهر أو العصر رفعها المؤذن وهو في غرفة الأذان أسفل المنارة، بواسطة آلة خاصة، فتعرف مساجد حلب حلول الوقت، فتؤذن تبعاً لذلك فوراً. أما في الليل فإن في رأس المنارة كشافاً كبيراً مميزاً يضيء عند حلول أوقات الصلاة.

المسجد والتعليم:

بلغ عدد مدرسي الجامع اثنى عشر مدرساً ، وعدد المحدثين ستة وعشرون، وعدد القراء والحفظة سبعة عشر وعدد الأئمة أحد عشر، وعدد الخطباء سبعة، وعدد المؤذنين أربعة عشر، وعدد خدمة الجامع ثلاثون، تصرف لكل منهم مقدرات ثابتة تأتي عن طريق الوقف، ويشكلون خلية نشاط دائمة الحركة في المسجد.

أوقاف ونفقات المسجد:

للجامع نفقات خاصة في رمضان زائدة عما في سائر العام.. وكذلك في أيام المولد النبوى الشريف. وهذه النفقات تشمل تنوير المسجد وتنظيفه، وإيقاد الشمع العسلي فيه، وتشمل أجرة قارئ القرآن والمولد ومنشد القصيدة وأجرة الحلاوى الذى يقوم بتوزيع الأشربة الحلوة على الحضور.

وبلغت الأوقاف الشيء الكثير الواسع الذى يشمل أراضٍ ودوراً ودكاكين في حلب وحولها، بل وقرى بأكملها تبلغ نيفاً وعشرين قريه... فجميع الأسواق المحيطة بالجامع، وكثيراً من أسواق المدينة القريبة منه وقف عليه، كسوق الصاغة وسوق الحباليين وسوق الطواوين وغيرها...

ويذكر أن بعض المدارس الشرعية بنيت بجوار جامع بنى أمية في حلب، ملاصقة أو قريبة، لتمثل ملحقات به تتحتمي في ظلّاله منها المدرسة الشرفية التي أنشأها الإمام عبد الرحمن العجمي وزوجته وأقاربه، وكانت مدة عمارتها أربعين سنة، ووقف لها أوقافاً عظيمة، وتخرج بها أئمة كبار مثل شيخ الإسلام ابن حجر وشمس الدين ابن ناصر.

وصف جمال المسجد:

قيل: إن جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفصيقيف و هي الفص المذهب إلى أن أحرقه الدمشقي لعنه الله . وإن سليمان بن عبد الملك اعنى به. كما اعنى أخوه الوليد بجامع دمشق.

ويحيط بمسجد حلب أسوق مسقوفة فهي دائمًا في ظل ممدو وقيساريتها لا تماثل حسناً وكبراً، وهي تحيط بمسجدها وكل سمات منها محاذٍ لباب من أبواب المسجد. ومسجدها الجامع من أجمل المساجد في صحته بركة ماء، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع. ومنبرها بديع العمل، مرصع بالعاج والأنبوس.

وقد اكتسب الجامع شهرة على مستوى العالم الإسلامي، نظراً لما يحتويه من زخرفة في فن العمارة الإسلامية وطراز عمراني قديم، إضافة إلى كونه عملاً معمارياً.

واحتواء الجامع على كنوز هامة، ففي الحرم سدة من الخشب المزخرف بألوان مختلفة مع كتابة تشير إلى عصر بانيها "قره سنقر كافل حلب"

ويعود المنبر إلى عصر الملك الناصر محمد، وصنعه محمد بن علي الموصلي، كما تشير الكتابة عليه، وهو من أجمل المنابر مزخرف بالرقص العربي الهندسي المركب من خشب الأنبوس والمنزل بالعاج والنحاس البراق ويعود المحراب إلى عصر السلطان قلاوون.

وقد تم بإشراف كافل حلب قره سنقر سنة (1281 هـ / 681 م) وهو مبني بالحجر المشقق بزخارف هندسية رائعة. وكما هو الأمر في الجامع الأموي في دمشق، فإن ضريحاً يطلق عليه اسم الحضرة النبوية، ويقال إنه يحيي قبر النبي زكريا، موجود وفيه أشياء ثمينة محفوظة، منها مصاحف شريفة كتبها كبار الخطاطين السوريين والأتراك، وفيها قناديل قديمة مذهبة ومفضضة وقواعد شمعدان ولقد أنشئ هذا الضريح منذ عام (1500 هـ / 907 م)

ترميم المسجد:

رمي المسجد مراراً. وكانت آخر الترميمات سنة (1620 هـ / 1030 م) وكسيت جدرانه الثلاثة بألواح الخزف القاشاني وأقيم باب الضريح وفوقه قوس من الحجارة بلونين أسود وأبيض إن أروع ما يحيي هذا المسجد، هو مئذنته المربيعة المرتفعة خمسين متراً والتي جددت سنة (1094 هـ / 873 م) بديلاً عن مآذن أموية نعتقد أنها كانت أربع مآذن في أركان المسجد، وكانت مربيعة ولا شك على غرار جامع أمية الكبير بدمشق والجامع الأخرى التي أنشئت في عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

وصف ابن جبیر للجامع:

وصف ابن جبیر في رحلته في حلب، لهذا الجامع الذي زاره سنة (580 هـ / 1183 م) وبين حالة المسجد قبل حريقه مع الأسواق سنة (564 هـ / 1168 م) وترميمه من نور الدين زنكي فيقول: "إنه من أحسن الجوامع وأجملها في كافة البلاد الإسلامية، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله أبواباً قصرية الحسن إلى الصحن، عددها ينيف على الخمسين، والبلاط القبلي الحرم لا مقصورة فيه فجاء ظاهر الاتساع".

ثم يصف المحراب والمنبر وزخارفهما فيقول "ما أرى في بلدٍ من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجالت صفحاته كلها خشباً على تلك الصنعة الغريبة وارتفع كالنار العظيم على المحراب، وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس أعلاه.. وهو مرصع كله بالعاج والأنبوس. إن المنبر والمحراب الذي يصفه ابن جبیر قد صنع في الوقت الذي أمر فيه نور الدين زنكي بصنع منبر للمسجد الأقصى، نقله فيما بعد صلاح الدين بعد تحرير القدس سنة (583 هـ / 1187 م).

تعرض الجامع الأموي وسط مدينة حلب لتخريب وحريق كبيراً التهم جزءاً كبيراً من محتوياته النفيسة، وذلك بعدما شهد اشتباكات عنيفة استمرت ثلاثة أيام بين قوات النظام التي كانت تتمركز فيه ومقاتلي الجيش الحر، ليضاف إلى تاريخ هذا الجامع حريق معاصر إلى جانب ما سبق وتعرض له على يد الروم والتتار.

فقد دمر جزء كبير من الجامع واحتراق معظم محتوياته، وأصبح السواد يغطي كافة جدران المسجد وأروقته، كما تعرض أحد جدرانه للتدمير الكامل.

وكذلك دمر مدخل الجامع بقنابل يدوية لخلق ساتر من الركام يعيق دخول الجيش الحر ويسهل لجنود النظام الانسحاب بعد محاصرتهم وقطع الإمداد عنهم وتعرض المنبر الأثري النفيس للاحتراق والتكسير.

ولم يكتف نظام الأسد بتدميره بل أيضاً قاموا بتدنيسه فقد وجدت زجاجات خمر قريباً من مرقد النبي زكريا داخل الجامع، وعثروا على المصاحف التاريخية ممزقة ومحروقة، كما لم يبق معلم في المسجد سليماً.

أما غرفة الإمام والمؤذن فقد عثر فيها على مسروقات من الأسواق المحيطة بالجامع خزتها شبيحة النظام، والذين كتبوا على براد الماء «نحن لا نطلب الرحمة من أحد لأنه سوف يأتي يوم لا نرحم فيه أحداً.. شبيحة الأسد».

وكان الشيخ الهنداوي قد دخل المسجد في 4/9/2012 فهاله منظر جنود النظام السوري وهم يتناولون الخمر في المسجد، فتحدثت إليهم وقال لهم إن ما يفعلونه انتهاك لحرمة المسجد، فجاءه رد عنيف من جنود الأسد. انصرف الشيخ هنداوي غاضباً إلى مكتبه واتصل هاتفياً بمحافظ حلب وحيد عقاد (لظن أنه سيحل المشكلة!) الذي وعده خيراً، ولكن عند خروجه من المسجد استوقفته عناصر قوات النظام السوري الذين يحتلون المسجد وتهجموا عليه بالكلام قبل أن يعتدوا عليه جسدياً عندما حاول مناقشتهم، ثم تم سحبه إلى مكان مجهول عُلِم بعد ذلك أنه فرع المخابرات الجوية المعروف بشدة إجرامه وتصفية المعتقلين وإلقاءهم في الشوارع!

وقد نقل موقع عكس السير الإلكتروني أن رجال دين موالين للنظام مثل محمد سعيد رمضان البوطي ومفتى النظام السوري أحمد حسون أبلغوا بشار الأسد شخصياً بالأمر ودعوه لإطلاق سراح الشيخ هنداوي، لكن رده جاء بأن الأسد "يُثق بضباطه وفي حال لم يسأ الشيخ إلى البلد فسيتم إطلاق سراحه"! وفي وقت لاحق، وبدلاً من إطلاق سراح الشيخ هنداوي، تم نقله من فرع المخابرات الجوية في حلب إلى مقر الجهاز في دمشق! وأفاد مصدر من داخل الجهاز أن "وضع الشيخ ازداد سوءاً".

المصادر:

- أ. كتاب: تاريخ المساجد الشهيرة - عبد الله سالم نجيب
- ب. كتاب: اليواقين والضرب في تاريخ حلب - إسماعيل بن شاهنشاه بن أبوب
- ج. كتاب : رحلة ابن بطوطة - محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، ابن بطوطة.
- د. صحيفة الشرق الأوسط
- موقع ويكيبيديا

المصادر: